﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٤٣﴾ [سبأ: 43]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد أن أخبرَ أنَّهم لم يؤمنوا بالقرآن الذي يخبرُ بالغيب مِن أمر الرَّحمن بما اهتدَت إليه عقولُهم، وشاهدتْهُ آثارُ عيونِهم في كلامه المعجزِ، ثمَّ أخبرَ ما كان مِنهم مِنَ الإيمان بالجنِّ غيبًا بأن عبدوهم مِن دونِ اللّه بما لم يدعُ إليه عقلٌ، فصدَّقوا أخبارَهم، وخلطوا معها أكاذيبَهم، ثمَّ ذكرَ سلب النَّفع والضُّرِّ ممَّن ادَّعوا عبادتَهم، وأسند تعذيبَهم إلى تكذيبهم، بعد ذلك كلِّه أَتْبعهُ بما كان مِنهم مِن ملازمة الإصرارِ على ذلك الكفر والتَّكذيب بما جاء بهِ مِنَ الصِّدق والحكمة، بأنَّهُ إذا تُليت عليهم الآياتُ البيِّنات؛ كذَّبوا ذلك، ورموهُ بالإفك المفترى[1].

بعدَ بيانِ كُفرِهم؛ أتبعَهُ الإخبارَ بملازمتِهمُ الإصرارَ على التَّكذيب

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُتۡلَىٰ﴾: (تلي) تدلُّ تصريفاتُه على معنى الاتِّباع، ومنهُ تلاوةُ القرآنِ؛ فإنَّ آيَه يتبعُ بعضُها بعضًا؛ ولذلك غلب عرفًا في معنى التِّلاوة أنَّها دالَّةٌ على قراءةِ القرآن، وهذا الفعل يختصُّ باتِّباع الكُتُبِ الَّتي أنزلها اللّهُ سبحانه، فتكون تارةً بالقراءة، وتارةً بالامتثال لما فيها من أمرٍ ونهيٍ وترغيبٍ وترهيبٍ، فتلاوةُ الكتاب: اتِّباعُهُ، والأخذ به من جهةِ العمل[2]، و"تلاه: تَبِعَهُ متابعةً ليس بينهم ما ليس منها،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 523 - 524.

(2) الخليل، العين: (تلا)، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (تلو)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (تلو - تلى).

وذلك يكونُ تارةً بالجسم، وتارةً بالاقتداء في الحُكم، ومصدرهُ: تلوٌّ وتلْوٌ، وتارةً بالقراءة وتدبُّر المعنى"[1]، ومعنى ﴿تُتْلَىٰ﴾: تُقرأ، أي: إذا قُرِئَت عليهم الآياتُ البيِّنات.

2) ﴿يَصُدَّكُمْ﴾: (صدّ) يدلُّ كثيرٌ مِن اشتقاقاتِه على معنى الإعراضِ والعدول والإبعادِ، ومَن صددْتَهُ؛ فقد عدلْتَهُ وصرفْتَهُ عنه، فالصَّدُّ: إعراضٌ وصدوفٌ وامتناع[2]، و"المعنى المحوريُّ: اعتراضٌ بقويٍّ أو كثيف يرُدُّ المقبل، أو يمنعه كالجبل"[3]، والصَّدُّ الوارد في الآية بمعناه المجازيِّ، أي: إنَّ هذا الرَّجل الذي يدَّعي الرِّسالة ما هو إلّا رجلٌ يريد أن يصرفَكم عمّا أنتم عليهِ، ويدعوكم إلى تركِ عبادة الأصنام التي ورثتموها عن آبائِكم[4].

3) ﴿إِفْكٌ﴾: (أفك) تدلُّ تصريفاتُه على قلبِ الشَّيء، وصرفِهِ إلى غير جهته، وأكثر ما يُستعمل في الكذب؛ "لأنَّ الكذبَ: صرْفُ الكلامِ عمّا ينبغي أن يكونَ عليه"[5]، وجميعُ الواردِ في القرآن الكريم مِن اشتقاقات الإفكِ هوَ بمعنى: التَّغيير والصَّرف عن الوجه الصَّحيح الَّذي يجب أن يكون[6]، وتدلُّ لفظةُ ﴿إِفْكٌ﴾ في الآية على أنَّهم نفوا عن الكتابِ الَّذي أُنزِلَ عَليهم – وهو القرآنُ – أنَّه مِن اللّه تعالى، بل هو كذب مفترًى[7].

4) ﴿مُّفْتَرًىۚ﴾: (فري) تدلُّ اشتقاقاتُهُ على قطْعِ الشَّيء، ثمَّ يتفرَّع عنه إصلاحًا وإفسادًا وتعجيبًا واختلاقًا للكذب، والإفراء للإفساد، والافتراء فيهما، وفي الإفساد أكثر، والفرية الكذب، فَرى كذبًا فَريًا، وافتراه: اختلقَهُ، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ﴾ [يونس: 38]، أي: اختلقَهُ[8]، ويرد الافتراءُ بمعنى الأمرِ العظيم من الكذبِ والبطلان، فيقال لمن يبالغُ في عملهِ: إنَّه يفري الفري، أي: يقطع الأمرَ العجيبَ[9]، ومعنى المفترى في آية سبأٍ: أنَّه كذبٌ "مُختلَقٌ غير مطابقٍ للواقع، قد افتراهُ على اللّه تلبيسًا وتغريرًا على ضُعفاء الأنام"[10].

---

(1) الراغب، المفردات: (تلو).
(2) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صدد).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صدد).
(4) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 94.
(5) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أفك).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أفك).
(7) أبو بكر الحداد، التفسير الكبير: 5/ 246.
(8) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (فرى).
(9) السجستاني، غريب القرآن، ص: 103.
(10) النخجواني، الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية: 2/ 180.

5) ﴿سِحْرٌ﴾: (سحر) تدلُّ تصريفاتُه على الخداع والتَّخيُّل والإيهام، وإخراج الباطل على صورة الحقِّ، وهو أيضًا "الخداعُ، وتخييلات لا حقيقة لها، نحو ما يفعلُهُ المشعبذُ بصرف الأبصارِ عمّا يفعلُهُ؛ لخفَّة يد، وما يفعله النَّمّام بقول مزخرفٍ عائق للأسماع"[1]، والسِّحْرُ: عبارةٌ عمّا خفيَ، ولطُفَ سببه، وهو عزائمُ ورُقًى وكلامٌ يُتَكَلَّم به، وأدويةٌ وتدخيناتٌ، وله حقيقةٌ، ومنه ما يُؤَثِّر في القلوب والأبدان، فيُمرِض، ويَقتُل، ويُفَرِّقُ بين المرءِ وزوجِه، ومِنهُ ما هو تخييلٌ.

والسِّحر في الآية الكريمة: هو السِّحر المعهود.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإعـــراضُ عن الآيات البيِّنات

يخبرُ اللّهُ سبحانه عن الكفّار كيف أنَّهم كانوا يتلقّون آياتِهِ القرآنيَّةَ النّازلة عليهم بإنكار صريح، وتكذيب واضحٍ، فكانوا يصفون النَّبيَّ ﷺ بأنَّه - وحاشاهُ - رجلٌ يريد أن يصدَّهم عن دين آبائهم، ويدَّعون أنَّ ذلك الدّين هو الحقُّ، وأنَّ ما جاءهم به الرَّسول ﷺ هو الباطل[2]، ويزعمون أنَّ القرآنَ ليس إلّا إفكٌ وافتراء، بل إنَّهم ذهبوا إلى أبعدَ مِن ذلك؛ فوصفوهُ بالسِّحر، وهو دليلٌ واضحٌ على عنادِهم وكفرِهم، واستحقاقِهم للعقاب.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ﴾:

بـيـــانُ حـــالِ الـكـافـريـن في الدُّنيا والآخرة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ عاطفةٌ[3]، فقد عطفت قصَّة تلاوةِ الآيات على الكافرين على قصَّة حَشْرِهِم يوم القيامة[4]، وهو عطْفٌ يمثِّل ربطًا بين قصَّتين أو حدثين، فالآيةُ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (سحر).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 289.
(3) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 106.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 225.

التي تتحدَّث عن تلاوةِ الآياتِ على الكافرين تعود، وتتَّصل بحدثٍ آخر، وهو يومُ القيامة مجمَعُ النّاس للحساب والجزاء، وهو ربطٌ يعطي صورةً متكاملة عن حال الكافرين في الدُّنيا والآخرة، وبين الجملتين على هذا توسُّطٌ بين الكمالين؛ لما بينهما من التَّناسُب في المعنى، واتِّحادهما في الخبريَّةِ.

لطيفةُ التَّقييد بـ(إذا) دون (إن):

بيانُ حالِ الكافرين في الدُّنيا والآخرة

طقُيِّدَ فِعلُ التِّلاوة بالأداةِ الدّالَّةِ على التَّحقُّقِ والقطعِ (إذا)؛ فإنَّه يدلُّ على الجَزمِ بوقوع مدخولها، دون حرف الشَّكِّ (إن)، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾، وذلك للتعجيب من وقاحتهم في أنَّ تكذيبَهم الرَّسول ﷺ إيّاهم حاصلٌ في أجدر الأوقات في تصديقهِ عندها، فهو وقتُ ظهور برهان صِدْقهِ لكلِّ عاقل متبصِّر[1]، وفيه دلالةٌ على تحقُّق تلاوةِ النَّبيِّ ﷺ عليهم القرآن وتبليغِه إيّاهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالتِّلاوة دون القراءة:

تتابُعُ تلاوةِ آياتِ القرآن فيه تذكيرٌ أكيدٌ

لَمّا كانت التِّلاوةُ تدلُّ على التَّتابع في القراءة؛ أوردَ هذا الفعلَ في الآية بقوله تعالى: ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾، فالتِّلاوة خاصَّة عُرْفًا بالقرآن الكريم الذي تُتلى آياتُهُ الواحدة تلْوَ الأخرى[2]، وفي هذا التَّتابع من التَّذكير ما فيه.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع ﴿تُتْلَىٰ﴾:

إعراضُهم عن الآياتِ مع تجدُّد تلاوتِها عليهم دليلٌ شدَّةِ إعراضهم

أوردَ فِعلُ التِّلاوة بصيغته المضارعيَّة في قوله تعالى: ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾؛ للدِّلالة على أنَّهم مع استمرار التِّلاوة وتجدُّدها؛ لم يحصُل منهم استجابةٌ للحقِّ الذي تدعو إليهِ الآياتُ، بل أعرضوا عَنْها ووصفوها بأبشعِ الأوصاف، وهذا يقتضي شدَّةَ عِنادهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 225.
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 22/ 86.

وعظيمَ كِبْرِهم، ولو ذُكِرَتْ بالفعل الماضي (تليت عليهم)؛ لاحتمل تلاوتها مرَّةً واحدة[1].

نكتةُ بناءِ الفعل ﴿تُتْلَىٰ﴾ للمفعولِ:

ما كان معلومًا؛ جـازَ حـذفُـهُ اقـتـصـادًا في اللَّفظِ

الفعلُ مِن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ مبنيٌّ للمفعول، والآياتُ: مفعولٌ لَم يُسمَّ فاعلُه[2]، فقد حذف فاعلَ التِّلاوة؛ لأنَّه معلومٌ ظاهر مِن سياق الآية، وهو الرَّسول ﷺ، فهو الَّذي يتلو الآياتِ[3]، وهو حَذْفٌ يُسهِم في إيجازِ العِبارة وجمالها.

ويجوزُ أن يكونَ الحذفُ لعدم تعلُّق السّياق بذكره؛ إذِ المقصود بيانُ إعراضهم وعنادهم، وذلك لا يتوقَّف على تلاوةِ الآيات مِن تالٍ مخصوصٍ، بل هذا مِنهم يكون في مقابلَةِ تلاوة القرآنِ أيًّا كان التّالي له.

معنى (على) في قولِهِ: ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

عـلـوُّ مـنـزلـةِ القرآنِ وعظمة مُنزلِهِ سبحانَهُ

حرفُ الجرِّ (على) بمعنى الاستعلاءِ في أصل وضعِهِ في لسان العرب[4]، وهو هنا كذلك في قوله تعالى: ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؛ فهو دالٌّ على استعلاءِ الآيات الرَّبّانيَّة بنزولها على المشركين والكفّار[5]، وكأنَّها نازلةٌ عليهم من مكانة ساميةٍ في إشارة إلى علوِّ منزلة القرآن، وعظمة منزلِهِ ﷻ.

بيانُ مرجعِ الضَّمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

بيانُ عنادِ أهل الشِّرْكِ

الضَّميرُ المتَّصل بحرف الجرِّ مِن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يعود إلى الكفّار الذين ذُكروا في سياق الآيات المنصرمةِ، وهم المشركونَ من أهل مكَّةَ[6] الذين يعاندون الحقَّ، ويجحدون النِّعم

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 22/ 86.
(2) النحاس، إعراب القرآن: 2/ 142.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 226.
(4) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 190.
(5) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 22/ 86.
(6) إسماعيل حقي، روح البيان: 7/ 304.

على الرَّغم ممّا تَحْمِلُه آياتُ اللهِ تعالى البيِّناتُ مِنَ الأدلَّة والبراهين الواضحةِ على صِدق الرِّسالة النَّبويَّة، ووحدانيَّة الله تعالى.

نكتةُ تقييدِ التِّلاوة بـ ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

تخصيصُهم بالتِّلاوة أبلغُ في إقامَةِ الحجَّة عليهم

قُيِّدَ فِعلُ التِّلاوة بالجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؛ لإفادة التَّخصيصِ بمَن وقع عليهم الفعلُ مِن غير أن يُشرك معهم غيرهم، فلا يكون منهم ادِّعاء أنَّ المقصود بالتِّلاوة سواهم، فلا يلزمهم سماعُهُ[1].

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

الاهتمامُ والتَّعجيب والتَّشويق إلى ما بعده

في تقديم الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على نائب الفاعلِ ﴿ءَايَتُنَا﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ اهتمامٌ بالمقدَّم، وتعجيبٌ من متعلِّقه، وأن يكون السّامع متشوِّقًا إلى ما يتلوه، وأنَّه من قَبيلِ البُهتان والكفر البواح[2].

دلالةُ التَّعبير بـ(الآيات) وجمعها:

آياتُ الكتابِ مشتملةٌ على البراهين القاطعة

لَمّا كانت الآياتُ هنا مرادًا بها آياتُ القرآن الكريم - الذي أُنزِلَ على رسولِهِ ﷺ[3] ذكرها بهذا اللَّفظ، ولم يذكرها بلفظ الأدلَّةِ أو العلامات؛ للإيماء إلى أنَّها آياتٌ لا تحتاج إلى دليلٍ آخرَ مَعها؛ إذْ لا تقبلُ الشَّكَّ أو التَّشكيك، فآياتُ اللهِ سُبحانَهُ تحمل في طيّاتها البراهينَ القاطعة على صِدق الرِّسالةِ، وفي جمعها تقريعٌ لهم؛ إذ لم يؤمنوا بها على كثرَتِها؛ لاستحكامِ الغفلةِ فيهم.

لطيفةُ الإضافة في ﴿ءَايَتُنَا﴾:

آياتٌ عاليةُ القدرِ ساميةُ المنزلة

أضيفَتِ الآياتُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ إلى ضمير العظمةِ العائدِ عليه سبحانه؛ للإشارةِ إلى أنَّ هذه الآياتِ تنتفي عنها صفةُ البشريَّة، وفي إسنادها إلى ضمير العظمةِ دلالةٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 523.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 225.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 40.

على علوِّ قدرها وسموِّها ورفعتها وشرفها[1]، فهي كلامُ اللّه سبحانه، وهي دليلٌ على وحدانيَّتِه وقُدْرَتِه.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾:

آيـاتُ القـرآنِ الكريم مُكْتنفةٌ بالبيان لفظًا ومَعْنًى

وُصِفتْ آياتُ القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ بكونِها بيِّنات؛ إذ الحالُ وصفٌ لصاحبِها في المعنى، ونكتةُ هذا الوصفِ: أنَّ ظهورها كائنٌ مِن عند اللّه تعالى، فقد عَجزوا عن معارضتها، ولأنَّ معانيَها مشتملةٌ على الأدلَّةِ الواضحة المصدِّقة إلى ما تدعو إليه، فكانت ألفاظُها ومعانيها محفوفةً بالبيان[2].

آياتُ اللهِ تعالى مؤيَّدة بالبراهين

وفي وصف الآياتِ البيِّنات في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ توبيخٌ وتقريع لهم، فإنَّ أجوبتَهم الباطلةَ على الغاية من الجهالةِ، والنِّهاية من الضَّلالة؛ لأنَّ الآياتِ البيِّنات لا تُعارَض إلّا بالكُتُبِ السَّماويَّة أو المعجزات النَّبويَّة، وهم لا يملكون شيئًا من ذلك[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالقول في ﴿قَالُواْ﴾:

مبـادرتُـهـم إلى التَّكذيب بالحقِّ قبل تأمُّلِهِ

لَمّا ذَكرَ ما كان مِن أمرِ الآيات البيِّنات في تلاوتها عليهم؛ بادرَ هؤلاء المكذِّبون الرَّسولَ ﷺ إلى القولِ: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾، "على الفور، من غير تأمُّلٍ لِما حملهم على ذلك من حظِّ النَّفس"[4]، فقد دفعت حظوظُ النُّفوس المكذِّبين إلى التَّسرُّع في إنكار الآيات البيِّناتِ، وبادروا إلى اتِّهامه ﷺ بأنَّه يريدُ إضلالهم، دونَ تأمُّلٍ أو تدبُّرٍ.

نكتةُ إسنادِ القول إلى ضميرِ جماعَتِهم:

إنـكـارُ الـكـفّـار الرِّسالةَ موقفٌ جماعيٌّ

أُسْنِدَ فعلُ القولِ إلى ضمير الجَمْعِ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ﴾؛ للدِّلالة على اتِّفاق الكافرين جميعًا على

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 22/ 86.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 225.
(3) الشيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/ 711.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 523.

تكذيب ما جاء من الحقِّ، في إشارةٍ إلى أنَّ هذا القولَ كان موقفًا جماعيًّا متَّفقًا عليه، لا يقتصر على فردٍ واحد منهم، بل يشمل الجميعَ، وهو تعبيرٌ يؤكِّد عنادَهم وتمسُّكَهم بالباطل، مع وضوح الحجَّةِ عليهم.

معنى ﴿مَا﴾ مع ﴿إِلَّا﴾ في الآية:

الطَّعْنُ في النَّبيِّ ﷺ لردِّ دعوتِهِ الحقَّةِ

شأنُ إلّا الدّالَّة على الاستثناء أن تكونَ دالَّةً على القصر إذا سُبِقَت بالنَّفي (ما مع إلّا)[1]، وهو الوارد في قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾؛ فقد "قصروا الرَّسول ﷺ على صفةِ إرادة صدِّهم قصرًا إضافيًّا، أي: إلّا رجلٌ صادٌّ، فما هو برسولٍ"[2]، فقد حصروا النَّبيَّ ﷺ في صفة واحدة هي الرَّغبة في إبعادِهم عن عباداتِهم؛ تقليلًا مِن شأنه، ونفيًا لرسالته، وإيهامًا للنّاس بأنَّه ليس إلّا رجلًا يهدف إلى تغيير عبادتهم.

ظهورُ صِدْقِ النَّبيِّ ﷺ

والقصرُ بـ ﴿مَا﴾ مع ﴿إِلَّا﴾ فيه معنى التَّوكيدِ، فإنَّه لَمّا كان لرسالته ﷺ من الظُّهور والتَّجلّي، وما له ﷺ مِنَ القبول، وقد ظهر ذلك لأتباعهم، فمالوا إليه بكلّيّاتهم، وأذعنوا له؛ فما كان مِنَ هؤلاء المستكبرين إلّا أن قالوا توكيدًا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾[3].

تجريدُ الكفّارِ لِرسالةِ الإسلامِ من صفةِ الرَّبّانيَّةِ

ويجوز أن يكونَ القصر الواردُ في قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾ قصرًا يرادُ مِنه ردُّ رسالةِ الرَّسول ﷺ[4]، وتجريدُ دعوته من أيِّ صفة إلهيَّةٍ، في محاولةٍ مِنهم حصر نبيِّ الله تعالى في البشريَّة المحضةِ، ليتأتّى لهم ردُّ دعوته.

مرجعُ الإشارة ودلالتها في ﴿مَا هَٰذَآ﴾:

كمالُ وقاحتهم مع النَّبيِّ ﷺ

مرجعُ الإشارةِ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز: 1/ 337.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 226.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 523.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 531.

﴿يَصُدَّكُمْ﴾ هو الرَّسول ﷺ، وفي استحضارِه بطريق الإشارةِ إفادةٌ لحضوره مجلسَ التِّلاوة؛ فقد كان يقرأُ القرآنَ في مجالسهم كقراءته على عُتْبة، وعلى ابن أبي سَلول، وتعبيرُهم بالإشارة دون الاسم أو صفةِ النُّبوَّة أو الرِّسالة ما هو إلّا مِن تمام وقاحتهم، وكمال صفاقتِهم مع الرَّسول ﷺ طعنًا فيه[1].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿رَجُلٌ﴾ وتنكيره:

حطُّهم من قدر النَّبيِّ ﷺ لردِّ رسالَتِه

جاء التَّعبيرُ بلفظ ﴿رَجُلٌ﴾ مِن قولِ الله تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾؛ لأنَّ مرادَهُم: لا تسمعوا لهذا الرَّجل ولتلاوته، فهو رجلٌ واحدٌ كأيِّ رجلٍ من رجالكم، بل وتزيدون عليه أنتم بالكثرة[2]، وفي تنكيرِه استهانة برسالتِه، وتقليل من شأنه ﷺ، وإظهار التَّهكُّم به، وإلّا فإنَّه ﷺ علَمٌ معروفٌ بينهم[3].

وفي إيرادِه منكَّرًا أيضًا تقليلٌ من شأنه ﷺ تحذيرًا لقومهم، فلا ينبغي الإيمان برجلٍ غيرِ معروف[4] يدَّعي الرِّسالة بحسب زعمهم.

دلالةُ التَّعبير بفعل الإرادة مضارعًا:

إثـارةُ الحميَّةِ فيهم لردِّ الحقِّ ولزوم الباطلِ

في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ نسبوا إرادةَ صدِّهم عن دين آبائهم وأسلافِهم له ﷺ، وغرضُهم من ذلك أن يثيرَ بعضُهم عصبيَّةَ بعضٍ، فإنَّ آباءهم في اعتقادهم همُ أهل الرَّأي والسَّداد؛ فلا يرون إلّا الحقَّ، ولا يفعلون غيرَ الصّواب والحكمة، فيكون مريدُ الصَّدِّ مبتغيًا الباطل، وكاذبًا في القول، والحقُّ مطابقةُ الواقع، وإبطالُهُ قولٌ غير مطابقٍ للواقع، وهو الكذب لا غير بحسب زَعْمِهِم[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 226.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 523.
(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 7/ 304.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 531.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 226.

معنى ﴿أَن﴾ في جملة ﴿أَن يَصُدَّكُمْ﴾:

﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾ حرفٌ مصدريٌّ يُفيد التَّوكيد والتَّعليل[1]، أي: إنَّ هذا الرَّجلَ يريد أن يمنعَكم، ويصرفَكم عن عبادة الآباء والأجداد التي يظنّون أنَّ الانحيازَ عنها تيهٌ وضلال.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿يَصُدَّكُمْ﴾:

التَّحريضُ على قوّة الاستمساك بدينهم الباطِلِ

التَّعبيرُ بِالصَّدِّ في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾ فعلًا مضارعًا؛ للدِّلالة على أنَّه صدٌّ متجدِّد مستمرٌّ، وهذا فيه تحريضُ قومِهم على شدَّة التَّمسُّك بما وجدوا عليه آباءهم؛ ليقابلوا هذا الصَّدَّ المستمرَّ الذي يريد زعزعتَهُم عن دينهم.

فائدةُ عدمِ إسنادِ فعل الصَّدِّ لأنفسهم:

إرادةُ إلهابِ المخاطَبين وتهييجهم

في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾ لم يسندوا فعل الصَّدِّ لأنفسهم مع أنَّهم معنيّون بذلك، فلم يرِد في النَّظمِ القرآنيِّ: (يُريد أن يصُدَّنا)، ونسبوه إلى جماعتهم؛ نفيًا للغرض عن أنفسهم، وتهييجًا وإلهابًا للمخاطَبين[2]؛ إذ صوَّروا الرَّسول ﷺ بأنَّه شخصٌ يسعى إلى فصْلِهم عن دين آبائِهم وأجدادهم، وهذا التَّحذيرُ يهدف إلى إثارةِ الخوفِ والقلقِ في نفوس المستمعين، وانحيازهِم عن قَبول دعوة الدّين.

معنى (عَنْ) في قوله: ﴿عَمَّا﴾:

الدَّعوةُ الحقُّ دعوةٌ إلى مباعدةِ عبادة غيرِ اللهِ تَعالى

الأصلُ في معنى (عَنْ) في كلام العربِ أن تدلَّ على المجاوزة[3]، والتَّعبيرُ بها في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ واقعٌ في هذا المعنى في دلالتها على المجاوزة والمباعدة[4]؛

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن النّري: 22/ 86.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 524.
(3) ابن بابشاذ، شرح المقدمة المحسبة: 1/ 237.
(4) محمد الهلال، تفسير القرآن النّري: 22/ 86.

فإنَّ ما جاء به هذا الرَّجلُ - وهوَ محمَّد ﷺ - غرضُه دعوتُكم إلى ترك عبادةِ الآباء والأجداد، والانتقال إلى عبادة اللّه تعالى.

دلالةُ (ما) في ﴿عَمَّا﴾:

الإشـارةُ إلى الأصنام التي كانوا يعبدونها

تَرِدُ (ما) كثيرًا اسمًا موصولًا دالًّا على غير العاقل كثيرًا، وللعاقل قليلًا[1]، وفي قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ استعمل (ما) اسمًا موصولًا بمعنى (الذي)؛ إشارةً إلى الأصنام والأوثان[2] التي تُعبد من دون اللّه تعالى.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي في: ﴿عَمَّا كَانَ﴾:

إثباتُ عراقةِ شِركهم باللّه تعالى

استُعمِلَ فعلُ الكون ماضيًا في قوله تعالى: ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ في إشارة إلى أنَّ عبادتَهم تلك عبادةٌ قديمة ثابتةٌ، فإذا ما ثبت لهم ذلك؛ أَلْهَبوا قلوبَ قومِهم وأشياعهم، وأوغروا صدورَهم، فتآلبوا على الرَّسول ﷺ، وازدادوا بدينهم تشبُّثًا[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع في ﴿يَعْبُدُ﴾:

إلهابُ السّامعين ليثبتوا على كفرهم

أوردتْ عبادةُ الآباء فعلًا، واستُعْمِل بصيغته المضارعيَّة في قوله تعالى: ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾؛ تحذيرًا لقومِهم بألّا يكونوا أَتْباعًا لهذا الرَّجل، وإلهابًا للسّامعين بتصوير آبائهم في صورةٍ مُثْلى مِنَ العراقة على العبادةِ وملازمتِها؛ بدلالة ﴿كَانَ﴾ والفعل المضارع الدّالِّ على الاستمرار؛ رَوْمًا منهم إلى الثَّبات على كفرِهم[4].

دلالةُ جمعِ الآباء وإضافتها في: ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾:

تحريكُ عِرقِ العصبيَّة منهم مبالغةٌ في تنفيرهم عن التَّوحيد

في قوله تعالى: ﴿كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ ذُكِرَ الآباءُ بصيغةِ الجمع، وأُضيفوا إلى المخاطَبين، ولم يُضِفْهُم المتكلِّمون إلى

(1) ابن عقيل، المساعد على تسهيل الفوائد: 1/ 165.
(2) الجزائري، أيسر التفاسير: 4/ 330.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 226.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 524.

أنفسِهم؛ لأنَّ المقصودَ تحريكُ عِرق العصبيَّة والحميَّة وإثارته منهم؛ مبالغةً في تقريرِهم على الكفر والشِّرك، وزيادةً في تنفيرِهم عن الإيمانِ والتَّوحيد[1].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَقَالُواْ﴾:

افـتراءُ الإفـك صادرٌ مِنَ الصّادِّ لهم عن شِرْكِهم بحسب زعمهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًىۚ﴾ عاطفة[2]، فهذه الجملةُ معطوفةٌ على الجملة من قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾؛ لِما بينهما مِنَ التَّوسُّط بين الكمالين؛ لاتِّحاد الجملتَين خبرًا، ووجود التَّناسُب في المعنى، والتَّناسُبِ في اللَّفظ، وهوَ اشتراك الفعلين في الظَّرف[3]، فالإفْكُ المفترى صادرٌ عمَّن يريد صدَّهم عن عبادة آبائِهم بحسب زعمهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالقول في ﴿وَقَالُواْ﴾:

زعـمـوا أنَّ وحـدانـيَّـة الله تـعـالى كـذبٌ مُختلَقٌ

في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًىۚ﴾، يجوز أن "يكون المرادُ أنَّ القولَ بالوحدانيَّة إفكٌ مفترًى، ويدلُّ عليه هو أنَّ الموحِّد كان يقول في حقِّ المشرك: إنَّه يأفك"[4]، يؤيِّده قوله تعالى: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الصّافّات: 86]، وقوله تعالى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ [الأحقاف: 22]، وفي التَّعبير بالقولِ إيماءٌ إلى مبادرَتِهم إلى مُطلق التَّلفُّظ قبلَ التَّأمُّلِ فيما أنكروهُ.

دلالةُ تَكرارِ الفِعْل (قالوا):

شناعةُ مقالةِ أهل الشِّرْكِ

بعد أن حكى اللَّهُ ﷻ مقالتَهم في قَصْرِهم الرَّسول ﷺ على إرادة صدِّهم عن عبادةِ آبائهم بقوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾، أعاد فِعلَ القول بنصِّهِ في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 138.
(2) مجموعة مؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1894.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 226.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 213.

﴿هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ﴾؛ اهتمامًا بما كان مِن حكاية قولهِم؛ لفظاعتهِ وقباحتهِ[1] مِن وصفهم كلامَ الله تعالى بالإفكِ المفترى.

مرجعُ الإشارةِ في ﴿مَا هَٰذَآ﴾ ودلالته:

طعْنُ الكفّار في القرآن بوصفِهم إيّـاهُ بـالإفـكِ المفترى

اسمُ الإشارة ﴿هَٰذَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ﴾ عائدٌ على الكِتاب الكريم[2]، واختاروا التَّعبيرَ باسم الإشارة للقريبِ؛ لإرادَةِ تحقيرِ كلامِ الله ﷻ المعظَّمِ؛ إمعانًا منهم في الباطلِ.

معنى ﴿إِلَّآ﴾ في ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ﴾:

زعْـمُـهـم أنَّ الـقـرآنَ كـذبٌ مختلقٌ

﴿إِلَّآ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ﴾ حرفُ استثناءٍ، وهو مفيدٌ مع حرفِ النَّفي الذي تقدَّمه ﴿مَا﴾ الحصرَ، والمعنى: أنَّهم لَمّا أرادوا الطَّعن في القرآن الكريم حصروهُ في الكذب المتعمَّد المفترى الذي لا حقيقةَ له[3].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿إِفۡكٞ﴾، وتنكيره:

إمعـانُـهـم فـي الـضَّـلالِ والانحرافِ

جاء التَّعبيرُ بلفظ ﴿إِفۡكٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ﴾ دون ما يُقاربُهُ مِنَ الألفاظ الأخرى، من نحو الكذبِ – وهو الإخبار عن الشَّيء بخلاف حقيقته مطلقًا، عمدًا أم خطأً[4] ولم يعبِّر بالافتراءِ، والأصلُ فيه الشَّقُّ والقطع والفصل، وما كان في القرآنِ الكريم؛ فهو بمعنى اختلاقِ ما لا أصلَ له[5]، فهو ادِّعاء الكذبِ، أمّا الإفكُ؛ فهو يدلُّ على قلْبِ الشَّيء، وصرفِهِ عن حقيقته[6]، فهو أبعدُ في السّوء والأذى مِنَ الكذب الذي يحتمل الخطأَ من غير تعمُّد، والافتراءُ الذي لا أصل له، والقرآن موجودٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 226.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 588.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الزّري: 22/ 86.
(4) الزبيدي، تاج العروس: (كذب).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فري).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أفك).

مشاهدٌ حقيقة، فلا يمكن إنكارُهُ، فلم يكن لهم إلّا نعتُه بالإفك الموصوف بأنَّه أسوأُ الكذبِ[1].

نكتةُ وصف ﴿إِفْكٌ﴾ بـ ﴿مُّفْتَرًى﴾:

(كذب) مصروفٌ عن وجهِهِ الصَّحيحِ بتعمُّد

وُصِفَ الإفكُ الدّالُّ على الكذب بالمفترى في قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾؛ للدِّلالة على أنَّه كذبٌ مصروفٌ عن وجهه الصَّحيح الذي يجب أن يكونَ غيرَ مطابقٍ للواقع، ومتعمِّدًا ما فيه مِنَ الصَّرف[2].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ﴾:

لم يزدهم سماعُ الآيات إلّا نفورًا

الواو من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدها على جملةِ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾[3]؛ لما بينهما مِنَ التَّوسُّطِ بين الكمالين، والعطفُ بين الجملتين مفيدٌ استمرارَ حالِ الكافرين في الكفر والعناد، فبعد أن سمعوا الآياتِ البيِّناتِ؛ لم يزدهم ذلك عن الإيمانِ إلّا نفورًا، وعلى الكفرِ إلّا إصرارًا.

نكتةُ تَكرار القول في الآية:

المبالغةُ في إنكار قالَتِهم

لمّا ذكر اللّهُ تعالى حكايةَ قولهم مرَّتين في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾؛ كرَّر فعل القولِ مرَّةً ثالثة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ﴾؛ لإظهار الإنكارِ العظيمِ لمقالَتِهم، والتَّعجيبِ البليغ منها[4].

نكتةُ الإظهارِ في مقام الإضمار:

الإنكارُ العظيم على جرأتِهم على الله تعالى ومكابرتِهم الحقَّ

في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ﴾ إظهارٌ في مقام الإضمارِ؛ إذ كان مقتضى الظّاهر أن يَرِدَ في النَّظم القرآنيِّ: (وقالوا)، والنُّكتة في الإظهار: أنَّ فيه إنكارًا عظيمًا، وغضبًا

(1) السجستاني، غريب القرآن، ص: 108.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 524.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 227.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 138.

شديدًا، وتعجيبًا مِن أمرِهم بليغًا لما صدر مِنهم مِنَ الكفر، فكأنَّه قال: وقال أولئك الكفرةُ الذين تمرَّدوا على اللّه سبحانه بجراءتِهم ومكابرتِهم لذلك الحقِّ الهادي قبل أن يتأمَّلوهُ[1].

الكفرُ هو الباعثُ لهم على مقالة السّوءِ

وفي الإظهارِ إيماءٌ إلى أنَّ الكفرَ هو الحاملُ لهم على هذا القولِ[2]، فهو صفتُهم المميِّزةُ التي تميِّزهم مِن غيرِهم.

دلالةُ الإسنادِ في ﴿كَفَرُواْ﴾:

هؤلاءِ الكافرون متَّحدون في كفرِهم وتكذيبهم للرُّسل والآيات

لَمّا أُريدَ الكلامُ عن فعلِ الكفرِ الصّادر ممَّن كفر، وكذَّب بآياتِ اللّه ﷻ؛ أُسْنِدَ إلى الضَّمير المجموع، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ﴾ في إشارةٍ إلى أنَّهم مُجْمِعون على الكُفر، وأنَّه عملٌ جماعيٌّ يجمع كلَّ مَن جحدَ حقَّ اللّه تعالى، وفي هذا التَّعبيرِ يؤكِّد وحدةَ أهلِ الكُفْرِ في مواجهةِ الحقِّ، وأنَّهم مُتمالِئون على التَّمرُّد عليه.

دلالةُ وصْفِهم بالكفر:

ستروا ما دلَّت الأدلَّةُ عليه

الكفرُ في أصلِ اللُّغة دالٌّ على مَعنى السَّتر والتَّغطية[3]، ولَمّا كان مِن شأن أمرِهم مع القرآن والوحي والنُّبوَّة أنَّهم ستروا ما كان دليلًا للعقولِ على حقيَّة القرآن[4]؛ استحقّوا أن يوصَفوا بالكُفْرِ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ﴾.

معنى (اللّام) في القيد ﴿لِلْحَقِّ﴾:

اتِّهامُهم رسولَ اللّه ﷺ بالباطل

حرفُ الجرِّ (اللّام) في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ﴾ دالٌّ على التَّخصيص[5]؛ فإنَّهم خصّوا نبيَّ اللّه ﷺ بهذا الاتِّهام الباطل، وكأنَّهم قالوا لَهُ كِفاحًا: ما جئتَ به ليس إلّا سحرًا مبينًا؛ وذلك لفرطِ ضلالِهم وعنادهم.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 588.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 524، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 227.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفر).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 524.
(5) الرماني، منازل الحروف، ص: 50 - 51.

تـوكيـدُ حقّيَّته وصِدقه

ويجوز أن تكونَ اللّام في قوله تعالى: ﴿لِلْحَقِّ﴾ دالَّة على التَّوكيد؛ لإثبات أنَّ الحقَّ هو الصِّدق المطلق، وهو الأمرُ الثّابت الَّذي لا يتغيَّر، ولا يتبدَّل، والذي ليس هناك غيره[1]، وهو ما يؤكِّد على أهميَّة التَّمسُّك به، والعمل بأحكامه.

معنى (أل) في ﴿لِلْحَقِّ﴾ ودلالته:

عـداءُ أهل الكفرِ للحقِّ بالكُلّيّةِ

(أل) في ﴿لِلْحَقِّ﴾ دالَّةٌ على الجنس، إي: لأمرِ النبوَّةِ أو الإسلام أو القرآن على أنَّ العطفَ لاختلافِ العُنوان بأنْ يُراد بالأولِ معناهُ والثاني نظمَه المعجزَ[2]، ولم يستعملْ لفظةَ (الرَّسول) أو (الوحي) أو (القرآن)؛ لأنَّ لفظةَ الحقِّ تُعبِّر عن كلِّ ما جاء به الرَّسول ﷺ مِن حقائقَ ومعارفَ وأحكام، فهي تشملُ القرآنَ والسُّنَّة بما يجعلها أكثرَ شموليَّة، وأوسع نطاقًا.

الـحـقُّ المـبـين لا مَطْعَن فيه

ويجوز أن تكون (أل) في ﴿لِلْحَقِّ﴾ للعهد[3] في إشارة إلى أنَّ المقولَ فيه هو الحقُّ المبينُ الذي لا يطعن فيه إلّا مَن كان مكابرًا معاندًا[4].

الإســـــلامُ هـو الـحـقُّ الـذي لا نقصَ فيه بوجهٍ من الوجوهِ

ويجوز أن تكون (أل) في ﴿لِلْحَقِّ﴾ للكمال[5]، والمعنى: "الذي لا أثبتَ منهُ، باعتبار كمال الحقّيَّة فيه"[6]، أي: إنَّ الحقَّ الذي جاء به الرَّسول هو الحقُّ المطلق الكامل الذي لا نقصَ فيه ولا شائبة، ومع ذلك قالوا عَنْهُ ما قالوا، وما ذاك إلّا لِعِظَم ضلالِهم وانحرافِهم.

دلالةُ ﴿لَمَّا﴾:

مسارعتُهم إلى رفْضِ الحقِّ

الأصلُ في ﴿لَمَّا﴾ أنَّها ظرفٌ مستعملٌ استعمالَ الشَّرط[7]، وجاءت في قوله تعالى: ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ دالَّةً على المسارعةِ في البتِّ بقولهم

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 22/ 86.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 138.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 574.
(4) الشيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/ 711.
(5) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 178.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 524.
(7) الإسفراييني، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: 2/ 77.

الباطل[1]، فقد سارعَ الكافرون مِن فورِهم إلى رفْضِ دعوة الرَّسولِ ﷺ والقرآن لَمّا جاءهم بالحقِّ والأدلَّةِ والبيِّنات بالكلام الباطل، ووصمَهُ بالسِّحر؛ إشارةً إلى مدى عنادِهم ورفْضِهم له، فاختاروا أسهلَ طريقٍ، وهو التَّشكيك.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمجيء دونَ الإتيان:

اسْتُعمِل فعلُ المجيء في قوله تعالى: ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ دونَ الإتيانِ؛ لما في الفعل ﴿جَآءَهُمْ﴾ من دلالة الحصولِ والتَّحقُّق[2]، فإنَّ مجيءَ الحقِّ حاصلٌ متحقِّق - لا محالة - بلا تباطُؤٍ.

الحقُّ أمرٌ واقعٌ قطعًا

موقعُ جملة: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾:

جملةُ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ واقعةٌ موقعَ التَّذييل ممّا سبق، فهو تكذيبٌ منهم يعمُّ جميعَ ما جاء به الرَّسولُ ﷺ ممّا يُتلى من وحيٍ، أو توحيد يُدعى إليه، أو استدلال يُستدلُّ به، أو معجزة من معجزاتِه[3].

تذييلٌ يعمُّ جميعَ أفرادِ الرِّسالةِ

معنى ﴿إِنْ﴾ و﴿إِلَّا﴾ في الآية:

﴿إِنْ﴾ مع ﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ دالَّةٌ على القَصْرِ؛ فقد بتَّ فيه أولئك الكفرةُ بجرأتهم على الله سبحانه، فقضوا بأنَّه سحرٌ[4]، مع عِلمهم في قرارة نفوسِهم أنَّ هذا الاتِّهام باطلٌ، والمعنى: أنَّ الكافرين النّاكبين عن طريق الحقِّ والهُدى قد قصروا كلَّ ما جاء بهِ النَّبيُّ ﷺ على كونهِ سحرًا، وهذا الحصْرُ يدُلُّ على عنادهم وتشبُّثهم بباطلِهم، ورفضِهم القاطعِ للحقِّ.

تشبُّث أهلِ الكُفْر بباطِلهم

نكتةُ إظهارِ المشار إليه ﴿لِلْحَقِّ﴾:

في قوله تعالى: ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أُظْهِر المشار إليه ﴿لِلْحَقِّ﴾ قبل اسم الإشارةِ ﴿هَٰذَآ﴾؛ لانتفاء وجودِ

ظهورُ الحقِّ دفعَهم إلى وصْفِهِ بالسِّحر

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 138.
(2) الراغب، المفردات، ص: 212.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 227.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 574.

الدَّليل عليه فيما سبق مِن كلام، والمعنى: أنَّه لَمّا ظهر لهم الحقُّ من إثباتِ التَّوحيد أو الإخبار عن الغيبيّات أو البعثِ؛ وصفوا ما جاءهم بالسِّحر المبين[1].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿سِحْرٌ﴾، وتنكيره:

لم يجدوا ما يَدْفعون بهِ الحقَّ إلّا اتِّهامُهم لَهُ بالباطِل

في وصْفِهم الحقَّ بأنَّه سحرٌ في قول الله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ مبالغةٌ منهم في الباطِلِ؛ إذ زعموا أنَّ القرآنَ الكريم - لكمال فصاحتهِ وعُلوِّ بلاغته بما لا يمكن الإتيانُ بمثلِهِ - جارٍ مجرى السِّحر[2].

دلالةُ وصفِ السِّحرِ بـ ﴿مُّبِينٌ﴾:

وصفوا القرآنَ بالسِّحر الظّاهر ترويجًا لأكاذيبهم وأنَّه واضحٌ للعيان

لَمّا عجزوا عن مجابهة الحقِّ؛ أرادوا ترويجَ أكاذيبهم، فشبَّهوا القرآنَ بالسِّحر، ووصفوه بالمبين، أي: الظّاهرُ السِّحريَّة[3] في قوله تعالى حكايةً لقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وهي محاولةٌ يائسة منهم لتشويه صورةِ الحقِّ، وإقناع النّاس بباطل دعواهم، ويشيرُ اسم الفاعل إلى أنَّ السِّحرَ الذي يتَّهمون به النَّبيَّ ﷺ واضحٌ وجليٌّ للعيان، فهو يُبين عن نفسِهِ لمن رآه، وتأمَّله[4]، أي: إنَّه سهلُ التَّمييز.

نكتةُ ترتيب مضامين الأقوالِ في الآية:

طعْنُهم في الرَّسولِ وفيما جاء بهِ وفي وصفِهِ

حكى اللهُ ﷻ مطاعنَهم على هيئة أقوالٍ مشتملةٍ على مضامين طعونِهم، **فالأوَّل**: طعنُهم في التّالي، وهو الرَّسول ﷺ بقوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾، **والثّاني**: طعْنُهم في المتلوِّ، وهو القرآنُ بقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾، **والثّالث**: طعْنُهم بأن وصفوا القرآن بأنَّه سحرٌ بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، فجاء ترتيبُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 227.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 531.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 531.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 415.

طعونِهم وفقًا لما يُمليه عليه منطقهم في أنَّهم طعنوا أوَّلًا في الرَّسول، ثمَّ طعنوا فيما جاء به، ثمَّ طعنوا في وصف ما جاء به[1].

دلالةُ تعبيرِهم بـ (هذا) في الآية:

تحقيرٌ دالٌّ على جراءتِهم على الله تعالى ورسولِهِ وكتابه ورسالاته

استُعمِلَ اسمُ الإشارة (هَذا) في ثلاثة مواضعَ مِنَ الآية، **فالأوَّل**: إشارةٌ إلى الرَّسول ﷺ، **والثّاني**: إشارةٌ إلى القرآن الكريم، **والثّالث**: إشارةٌ إلى وصف كتابِه الكريم، وتَرْكُ الاسم إلى الإشارة تحقيرٌ صريحٌ يدلُّ على جرأة بالغةٍ مِن هؤلاء الكافرين على اللّه تعالى ورسولِهِ وكتابه[2]، بتجاوزهم وتماديهم في تحدّي اللّه ورسوله وكتابِه، واستهانتِهم بالحقائق الرَّبّانية الثّابتة، بموجب كفرِهم وعصيانهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التِّلاوة والقراءة:

التِّلاوةُ أخَصُّ مِنَ القراءة

التِّلاوةُ أخَصُّ مِنَ القراءة؛ لأنَّ القراءةَ قد تكون للكَلِمَةِ الواحدةِ وأكثر، بخلاف التِّلاوة؛ فإنَّ أصلَ اشتقاقاتها - الدّالَّ على التَّتابع - يدلُّ على قراءة اللَّفظِ الكثير المتتابع.

وأورد فعلَ التِّلاوة في قوله تعالى: ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾، ولم يورِدْ فعلَ القراءة؛ لخاصّيَّة التَّتابع في التِّلاوة؛ من إتباعِ الشَّيءِ الشَّيءَ، يقال: تلاه؛ إذا تَبِعَهُ، فإنَّها تكون للَّفظ الكثيرِ، أمّا القراءةُ؛ فتكونُ للكلمة الواحدة، كأن يقال: قرأ فلانٌ اسمَهُ، ولا يقال: تلا اسمَهُ[3]، ولمّا كان قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ واردًا موردَ الجمع؛ دلَّ ذلك على كثرتها؛ فلا يناسبها عندئذٍ إلّا لفظُ التِّلاوة[4].

الآية والعلامة والدَّليل:

الدَّليل ما يُحتجُّ بـه، والعلامةُ الأثرُ في الشَّيء، والآيـة الطّائفةُ مِنَ القرآن

معنى الدَّليل: أن تأتيَ بما تحتجُّ به على صحَّة مذهبك، وقد

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 558.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 8/ 337.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 140.
(4) محمد الهلال، تفسير القرآن الزّري: 22/ 86.

يكون هذا الدَّليلُ وضعيًّا كدلالة الاسمِ على المسمّى[1]، أمّا العلامةُ؛ فالأصلُ فيها وجودُ الأثر المميَّز الذي يميِّزها مِن غيرها[2]، والآيةُ تأتي بمعنى العلامةِ والشَّخص والجماعة[3] وسوى ذلك، إلّا أنَّ المرادَ في الآيةِ: كونُها "طائفةً مِنَ القرآنِ، يتَّصل بعضُها ببعض إلى انقطاعها، طويلةً كانتْ أو قصيرةً"[4]؛ فصار لفظ الآيَةِ غلبًا بالغَلَبَةِ على الآيةِ القرآنيَّةِ.

السِّحر والكهانة:

السِّحرُ أَقوى مِنَ الكهانة

الكهانةُ: تنبُّؤٌ بما يكونُ، فمُسْتَنَدُ الكاهنِ هو كلامُهُ الذي يذكرهُ للنّاس، أمّا السِّحر؛ فهو عملٌ في الأكثر؛ للتَّأثير في الأرواحِ لِتقومَ بأداء ما طُلِب منها، ولا يُمْكِنُ صُنعُ سِحْرٍ ما لم يقترن بعمَلٍ ما، ويصحبُ هذا العملَ كلامٌ مفهومٌ أو غير مفهوم، فالسِّحْرُ أشنَعُ وأقوى تأثيرًا، ولذا لَمّا وصف الكُفّارُ ما جاء به الرَّسولُ ﷺ بأنَّه إفكٌ مفترًى؛ ختموا أوصافَهم بأنَّه ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ لقصدِهم إلى المبالغة في وصف ما جاء به زيادةً في تنفير النّاس عنه.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 71 - 72.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (علم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أيي).
(4) الكفوي، الكليات، ص: 41.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والأربعون،
سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 46 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-99-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 46 : المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-99-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0986397 بتاريخ 2025/01/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»